الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

جوارح الحبّ

وهدوء الودّ

ثنائية الاستقرار الزّوجيّ في ضوء القرآن الكريم

زاحم ساحات الجهل والباطل، يرجى نشر ما تقرأ من علم وحق، ولا تصمت صوتك في الحق

360 KNO SMART SCHOOLING
unicef
UNESCO United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization
GenEx Generational Education Exchange
تمكين TAMKEEN
University of Victoria London - UK
AMIEF American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في التّأمل العميق لحكمة الخلق الإلهيّ، يبرز الزواج كآية عظمى من آيات اللّه في الأرض، لا بوصفه مجرّد اتّحاد بين كائنين، بل كمظهر من مظاهر التوحّد الرّوحيّ الذي يعكس الكمال الإلهيّ في الخلق، فهو ذلك الميثاق الغليظ الذي يتجاوز حدود المادّة ليصل إلى أعماق الروح في اللحظة التي تلتقي فيها نفسان لتصبحا نفساً واحدة في رحلة السّكون إلى اللّه.....

ففي القرآن الكريم، يقول اللّه تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21]، ففي هذه الآية الجليلة، يرفع سبحانه وتعالى الزواج من مستوى العلاقة البشرية العادية إلى مرتبة الآية الكونيّة، ممّا يستوجب منّا التفكّر العميق في حكمتها ومقاصدها الروحيّة، وما تحمله أبعادها من فلسفة إلهيّة تبدأ بالوحدة وتصل للتّكامل الروحيّ....

فأولى دعائم تلك الفلسفة الروحيّة، ما تجسّد في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1]، وهي ركيزة النّفس الواحدة والزّوج الطّاهر، فالرّجل والمرأة مخلوقان من نفس واحدة، ممّا يعني أنّ اللقاء بينهما في الزواج هو في الحقيقة عودة إلى الوحدة الأصلية، وتحقّق للكمال الذي قُدّر له في الأزل، وهذا التصوّر العميق يجعل من البحث عن شريك الحياة لا مجرّد رغبة نفسيّة أو حاجة اجتماعيّة، إنّما هو سعي روحانيّ لاستكمال النقص الوجوديّ الذي خُلق عليه كلّ إنسان، فهو بحث عن النصف الآخر من الروح، النّصف الذي يكمل النّفس ويحقّق لها السّكون والاطمئنان....

وثاني دعائم تلك الفلسفة، السّكن كمقام روحي عالٍ، لا كراحة جسديّة أو نفسيّة وحسب، فهو مقام يتحقّق فيه الانسجام التّام بين الرّوح والجسد، بين الظاهر والباطن، وبين الدنيا والآخرة، فعندما يسكن الرّجل إلى زوجته أو تسكن المرأة إلى زوجها، فإنّ هذا السّكون يتجاوز حدود الراحة المؤقّتة ليصل إلى درجة الطمأنينة الروحيّة العميقة، فهذا السّكن الروحيّ يشبه في طبيعته سكون القلب إلى ذكر اللّه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، فكما أنّ القلب لا يجد طمأنينته الحقيقيّة إلاّ في ذكر اللّه، فإنّ النّفس الإنسانيّة لا تجد سكونها الكامل إلاّ في اللقاء مع شريك الروح الذي قُدّر لها منذ الأزل....

وثالث تلك الدّعائم، خير متاع الدّنيا، وهي المرأة الصالحة، فقد قال عنها الرسول ﷺ: "الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة"، فالمرأة ليست بالشيء الذي يقتنى أو يُستمتع به ويرمى، بل هي الحقيقة الروحانيّة العميقة، والمتاع الذي ينتفع به المسلم في رحلته إلى اللّٰه، فهي من سيعينه على طاعة ربه وتحقيق مقاصد وجوده، فهي خير متاع لأنّها تعكس في أخلاقها وسلوكها جمال الصفات الربانيّة، أو ما يسمّى بمدارج الكمال الروحي، فقد وصف الرسول ﷺ خير النساء بقوله: "خير النساء التي تسرّه إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها وماله بما يكره"، فمن جهة ستجد فيها إشراق الرّوح وجمال النفس وطهارة القلب، فتحمل في وجهها نور الإيمان وبشاشة التقوى، وتجد جمالها الروحانيّ يتجدّد مع الأيام ويزداد بهاءً مع مرور الزمن، ومن جهة أخرى تجد جمالها في أخلاقها التي تتحلّى بها، فهي تتصّف بخلق الطاعة الواعية كمظهر للحكمة الروحانيّة، لا كتجسيد للخنوع والضّعف، فهي تدرك أنّ التناغم والانسجام في العلاقة الزوجيّة لا يتحقّق إلاّ بوجود قيادة واعية وتبعيّة حكيمة، كما أنّها تتحلّى بخلق الأمانة والحفظ كمظاهر للتّقوى، فلا تجدها تخالف زوجها في نفسها وماله بما يكره ويبغض....

ورابع تلك الدّعائم الطّاعة الروحانيّة، التي تعكس فكرة التّسليم والانقياد بوعي كمظهر من مظاهر التّسليم للّٰه، فعندما تطيع المرأة زوجها، فإنّها في الحقيقة تطيع اللّٰه الذي أمرها بهذه الطاعة، وبذلك ترتقي من مستوى الطاعة البشريّة إلى مرتبة العبوديّة للّٰه، والمرأة التي تطيع زوجها طاعة واعية ومسؤولة إنّما تعبّر عن إيمانها العميق وتسليمها الكامل لحكمة اللّٰه في تدبير شؤون خلقه، ولهذه الطّاعة الزوجيّة مراتب متصاعدة، فأولّها مرتبة الامتثال الظاهريّ، وتعني الطّاعة في الأعمال والأفعال الخارجيّة وهي مطلوبة شرعاً، وثانيها مرتبة الموافقة القلبيّة، وتعني موافقة المرأة زوجها قلباً وقالباً، فتكون طاعتها نابعة من اقتناع داخليّ ورضا نفسيّ، وثالثها مرتبة التّسليم الروحيّ، وهي أعلى مراتب الطّاعة، حيث تسلّم المرأة أمرها لزوجها تسليماً كاملاً، مدركة أنّ هذا التّسليم في الحقيقة تسليم للّٰه الذي جعل للرّجل القوامة والمسؤوليّة....

وبالتالي فخامس الدّعائم هي القوامة الروحانيّة، التي تتمثّل في تحمّل المسؤولية الإلهية المقدّسة، وفي ذلك يقول اللّٰه تعالى:﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: 34]، فالقوامة ليست امتيازاً يُمنح للرجل ليتمتّع به، إنّما مسؤوليّة مقدّسة يُكلّف بها أمام اللّٰه، فالقائم الحقيقيّ هو من يقوم بأمر اللّٰه في رعايته لزوجته، فيحميها ويرعاها ويسعى لخيرها، فهي مسؤوليّة

روحانيّة عظمى تتطلّب من الرجل أنْ يكون مثالاً في الأخلاق والسلوك، وأنْ يكون جديراً بثقة من وضعها اللّٰه تحت رعايته....

وختام تلك الدّعائم، اللباس المتبادل، وهنا ترسيخ لفكرة التّكامل الروحيّ بين جسدين وروحين، وفي ذلك يقول اللّٰه تعالى:﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، ففي هذا التشبيه القرآنيّ فلسفة عميقة للتّكامل الروحيّ بين الزوجين، فاللباس ستر ورحيّ، فكما يستر اللباس العورات الجسدية، فإنّ كلا الزوجين يستر عيوب الآخر الروحيّة والنفسيّة، ويكون حافظاً لأسراره وساتراً لضعفه، فهو ستر المحبّة والرّحمة الذي يخفي النقائص ويبرز المحاسن، واللباس زينة وجمال، يزيّن صاحبه ويجمّله، وكذلك كلا الزوجين يزيّن كلّ منهما حياة الآخر ويضفي عليها البهجة والجمال، واللباس حماية ودفء، فكما يحمي اللباس من البرد والحر، فإنّ الزوجين يحميان بعضهما من عواصف الحياة ومتاعبها، ويوفّران الدفء النفسيّ والعاطفيّ في مواجهة تحدّيات الدنيا، وفي هذا اللباس بأبعاده كافّة تأكيد على فكرة التباديليّة والمساواة الروحانيّة، فالعلاقة الزوجيّة ليست علاقة أحاديّة الاتجاه، إنّما هي شراكة متكاملة يكمل فيها كلّ طرف الآخر، إذ إنّ كلا الزوجين يساهمان في الارتقاء الروحيّ للآخر، فالرجل يعين زوجته على طاعة اللّٰه وحسن العبادة، والمرأة تعين زوجها على ذكر اللّٰه والإقبال على الآخرة، فنحن أمام شراكة في الرحلة إلى اللّٰه، وتعاون على البرّ والتقوى...

ومن خلال التأمل الروحانيّ العميق للعلاقة الزوجية في ظلّ الفلسفة الإسلاميّة، فإنّنا نجد أنّها تمرّ بمرحلتين متكاملتين تعكسان طبيعة العلاقة بين العبد وربه:

مرحلة الانجذاب الروحيّ الأولى، أو ما يسمّى بجوارح الحبّ، فقد قال اللّٰه تعالى:﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران: 14]، فهذه المرحلة تمثّل بداية اليقظة الروحيّة في القلب، إذ يشعر الإنسان بانجذاب عميق نحو الآخر، انجذاب يتجاوز حدود المادة ليصل إلى أعماق الروح، فهي شرارة إلهيّة تُشعل في القلب نار المحبة والشوق، وهذا الحب الأوّليّ، بكلّ ما يحمله من توهّج وانفعال وقوّة وشغف وعاطفة جيّاشة، يشبه في طبيعته الروحانيّة تلك اللحظات الأولى من الإيمان حين يستيقظ القلب على حقيقة وجود اللّٰه ويشعر بتلك الرغبة العارمة في اللقاء والقرب...

ومرحلة الاستقرار الروحي العميق، أو ما يسمّى بهدوء الودّ، فقد قال اللّٰه تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21]، فمع مضيّ الوقت تتحوّل جوارح الحبّ الملتهبة إلى هدوء الودّ المطمئن بما فيه من سكينة واستقرار، وهذا التحوّل ليس انتكاساً أو فتوراً، إنّما هو نضج روحيّ وارتقاء في مدارج المحبة، ويّ كأنّ العبد المؤمن قد انتقل من مرحلة الانفعال الإيمانيّ الأولى إلى مرحلة الطمأنينة واليقين الراسخ، فهدوء الودّ يتجلّى في السكينة الدائمة،

إذ يصبح وجود الشريك مصدر طمأنينة لا ينضب، والمودّة العميقة المتمثّلة بالحبّ الرّاسخ المتجذّر في أعماق النفس، حبّ لا تزعزعه عواصف الحياة ولا تؤثر فيه تقلّبات الأيام، والرحمة المتبادلة التي تمثّل أسمى مراتب الحبّ، فيصبح كلّ طرف رحيماً بالآخر، عطوفاً عليه، حريصاً على راحته ونجاته....

وبعد،

فإنّ الحياة الزوجية ليست مجرد علاقة اجتماعيّة أو حاجة نفسيّة، إنّما هي مجال خصب للعبادة والتقرّب إلى اللّٰه، ففي كلّ لحظة من لحظات الحياة الزوجية، من الحب والحنان إلى التحمّل والصبر، كلّها قد تكون عبادة إذا قُصد بها وجه اللّٰه، فحسن المعاشرة إذا قُصد بها الحلال والعفاف، والبرّ بالزوج أو الزوجة، والصّبر على الأذى، والتّسامح والعفو، كلّه عند اللّٰه يعدّ من أعظم الطاعات....

والحياة الزوجيّة تتيح للمؤمن فرصاً للارتقاء في مدارج الكمال الروحي، فيتعلّم الصّبر والتّحمّل في التّعامل مع طباع الشريك المختلفة وتقلّبات مزاجه، ويتعلّم الإيثار والعطاء في تقديم حاجات الشريك على الحاجات الذاتيّة، ويتعلّم الحلم والعفو والتّسامح في التعامل مع أخطاء الشريك وزلاته، ويتعلّم الشّكر والامتنان في تقدير نعمة الزوّج أو الزّوجة الصّالحة....

كما أنّ الزّواج طريق لتحقيق التوازن الروحيّ بين الدنيا والآخرة، فقد قال رسول اللّٰه ﷺ: "إذا صلّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أيّ أبواب الجنة شئت"، فهذا الحديث يضع الحياة الزوجيّة في سياقها الأخرويّ، فالمرأة التي تحسن القيام بدورها كزوجة في إطار التزامها الديني تُضمن لها الجنة، فالحياة الزوجيّة الصالحة هي في ذاتها مقام روحيّ عالٍ يحقّق للإنسان السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة....

فضلا عن أنّ الزّواج يحقّق التّوازن بين الحقوق الإلهيّة والحقوق الزوجيّة، فالمرأة المؤمنة تدرك أنّ حقوق زوجها عليها لا تتعارض مع حقوق اللّٰه، إنّما كلاهما بينهما تكامل وتناغم، فطاعة الزوج في المعروف طاعة للّٰه، والإحسان إليه إحسان يُثاب عليه من اللّٰه، فالمرأة الحكيمة تعرف كيف تجمع بين واجباتها تجاه ربها وواجباتها تجاه زوجها، وتدرك أنّ التفريط في أحدهما إخلال بالآخر....

فالزّواج في المنظور الإسلاميّ الروحانيّ ليس مجرّد اتّحاد بين إنسانيّن، إنّما هو انعكاس لسنّة إلهيّة كونيّة تقوم على التّكامل والتّناغم، فهو مرآة تعكس صفات الكمال الإلهيّ من الموحة والرحمة، الستر والحماية، والجمال والإحسان، وفي هذا الإطار الروحاني العميق، تتحقّق الآية الكريمة:﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74]، إذ يصبح الزوج والزوجة قرة عين لبعضهما البعض، ونموذجاً يُحتذى به في التّقوى والصّلاح، وطريقاً للوصول إلى أعلى مقامات القرب من اللّٰه عزّ وجلّ، ففي جوهره الروحانيّ العميق، يعدّ الزّواج جسراً يعبر به المؤمنون...

من دنيا الفرقة والوحدة إلى عالم الوحدة والتكامل...

ومن مقام الحاجة والنقص إلى مقام الغنى والكمال...

ومن دائرة المحدود المؤقت إلى آفاق اللامحدود الأبديّ...

حيث تتحقّق السعادة الحقيقيّة التي وعد اللّٰه بها عباده المؤمنين في الدنيا والآخرة....